

الفصل الثاني

القبيلة العربية في الحجاز قبل الاسلام

القبيلة العربية في الحجاز قبل الاسلام

من الواضح أن النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لعرب الجاهلية هي حصيلة التفاعل بينهم وبين البيئة التي عاشوا فيها، فقد خضعوا لشروط بيئتهم، وكيفوا حياتهم الاجتماعية مع الظروف الطبيعية التي نشأوا فيها، وقد اتصفت ظروف معيشتهم بالقسوة والإملاق، السماء شحيحة بالمطر، والأرض صحراوية قاحلة محدودة الثروة، فقيرة الإنبات، والمناطق تجف واحدة تلو الأخرى، أما الواحات فهي على الأطراف.

لذلك اضطر السكان إلى التدرج من حياة النقلة الدائمة تبعا للجفاف الدوري إلى الاستقرار الدائم وبناء الحواضر في الواحات. فالإنتاج يحدد نوع الحياة، ويتبدل شكل الحياة بتبدل شكل الإنتاج، حيث أوجبت هذه الظروف أن تكون حياة العرب في الحجاز عبارة عن بدو وحضر فالحضر سكان القرى والواحات الغربية في الحجاز والبدو سكان البادية المتنقلون سعيا وراء العشب والماء.

القبيلة العربية:

على الرغم من وجود البدو والحضر، قام التنظيم الاجتماعي على نظام القبيلة، وقد استعملت كلمة قبيلة بالمعنى العام الاصطلاحي لأنها اسم خاص لأحد أقسام المجتمع في العصر الجاهلي غلب على الأقسام الأخرى، فهناك ما هو أصغر، وهناك ما هو أكبر وهي بالترتيب:

- 1- الجذم وهو الأصل.
- 2- الجماهير، والتجمهر الاجتماع والكثرة، ومنه جماهير العرب.
- 3- الشعوب وأحدها شعب

4- القبائل وأحدها قبيلة

5- العمائر وأحدها عمارة

6- البطون وأحدها بطن

7- الأفخاذ وأحدها فخذ

8- العشائر وأحدها عشيرة، وهم الذين يتعاقلون إلى أربعة أباء سميت بذلك لمعاشرة الرجل إياهم.

9- الفصائل وأحدها فصيلة وهم أهل بيت الرجل.

10- الرهط: وهم رهط الرجل وأسرته، والرهط مادون العشرة، والأسرة أكثر من ذلك⁽¹⁾، فإذا تأملنا هذا القسم تبين لنا أن الرهط والأسرة والفصيلة أصغر الوحدات في حياتهم الاجتماعية، إذ كلها بمعنى واحد، وكل منها يدل على أهل بيت الرجل، وما الفرق بينهم إلا في الحجم، فالرهط مادون العشرة، والأسرة أكثر من ذلك، والفصيلة أكثر من هذه وتلك، على أن هناك ترتيبات أخرى في كتب علم الأنساب، وفي كتب التاريخ المختلفة⁽²⁾، وكلها ترتيبات قد تكون اجتهادية، أخذت من أفواه العلماء والرواة⁽³⁾ ومن الأوضاع القبلية التي كانت سائدة في أيامهم، ومن اجتهادهم أنفسهم، وكلها تصل في النهاية إلى الأسرة، أي البيت الذي هونوا القبيلة، ومن نموها ظهرت شجرة القبيلة، فهل كان للأسرة أهمية في ذلك الوقت كأسرتها الحالية؟ بالطبع لا أهمية للأسرة بمعناها الحالي، وذلك لأن الأسرة في المجتمع الجاهلي كانت تنظم جميع أفراد العشيرة الواحدة، فلم يكن لديهم فرق

(1): نهاية الأرب ج2 ص277 وما بعد، جمعة (محمد محمود) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية، مطبعة السعادة بالقاهرة 1949 ص9 يختصر إلى جمعة، سعد: تاريخ العرب قبل الإسلام ص304.

(2): ابن الكلبي (هشام أبوالمختار بن محمد بن السائب) جمهرة النسب - دار الیقظة العربية، ج1 ص430 يختصر إلى ابن الكلبي: النسب، العقد الفريد ج3 ص289، سبائك ص13 - 14.

(3): ابن رشيقي: (أبي علي الحسن القيرواني) العمدة في صناعة الشعر ونقده ط1 1344 - 1925 مطبعة أمين هندية بمصر ج2 ص154 يختصر إلى ابن رشيقي العمدة، الواسي ج3 ص188. علي: المفصل ج4 ص318، برو، ص255.

بين أسرة وعشيرة، قال تعالى: " وَأَخْذُواْ كَثِيرًاْ مِّنَ الْإِنْفُسِ " (4) مما يوضح أن الحياة الاجتماعية في أقدم مراحلها كانت تدور حول العشيرة لاحتواء الأسرة والقبيلة، إذ لم يظهر النظام القبلي إلا متأخراً، وذلك عندما اضطرت العشائر إلى أن تزدلف بعضها إلى بعض لضرورة حرية أو لأغراض اقتصادية (5).

فالقبيل الجماعة من أبناء شتى، وجمعه قبل، والقبيلة الجماعة المنتمية إلى آب واحد، وجمعها قبائل، وقد قيل سميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها (6).

وهي عبارة عن ((مجموعة من العشائر، والجماعات النسبية أو النجوع والقرى ولها أرض مخصصة، ولغة مشتركة بين عشائرها وقراها، ويسودها تضامن اجتماعي وثيق يربط أفرادها بعضهم ببعض، ويلقي عليهم مسؤولية مشتركة، ويحملهم واجبات في الدفاع عن أرضهم وشرفهم، وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم المشتركة، وهوتضامن لا شعوري تمليه رابطة القرابة والدم)) (7)، وعندما استوطنت الأسر ولزمت مواطنها، واعتمدت في رزقها بالأكثر على استغلال الأرض وتربية الماشية وبالأقل على الغزو، تكونت العشيرة التي انحصرت فيها السلالة، وكان ذلك في آخر أدوار الهمجية والوحشية وبالأحرى في بدء أدوار المدينة والحضارة (8) وعلى كل الأحوال لا يكون تكون القبيلة من انضمام العشائر والأسر. بل كثيرا ما يفضي الزحام أو الصدام إلى انضمام شراذم أخرى غريبة إلى القبيلة، وعلى التمادي تصبح هذه الشراذم من جسم القبيلة (9). وسنفضل ذلك أثناء الحديث عن تركيب القبيلة.

(4) : سورة الشعراء: الآية 214

(5) : جمعة ص 91

(6) : لسان العرب مادة قبل، آلوسي ج3 ص188

(7) : معجم العلوم الاجتماعية، أعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب الهيئة، المصرية العامة للكتاب 1975 م ص 465 يختصر إلى معجم العلوم الاجتماعية.

(8) : حداد (نقولا) حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها، عني بنشرة الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بالفجالة بشارع الخليج الناصري رقم 6 بمصر ص 257 يختصر إلى حداد.

(9) : حداد ص 257

ولذلك لا ينتظر دائما أن تكون القبيلة سلالية نقية، بل تكون شعبية، أي مزيجا من سلالات مختلفة، كذلك لا ينتظر دائما أن تكون القبيلة جامعة كل أفراد السلالة بل كثيرا ما تكون السلالة مشتتة هنا وهناك، وإذا كانت البقعة واسعة، والقبائل مشتتة فيغلب أن تكون هذه القبائل سلسلة من سلالة واحدة، ولغتها تدل على وحدانية سلالتها⁽¹⁰⁾،

والرابط الذي يربط أبناء القبيلة ويجمع شتاتها النسب الذي بواسطته حافظت القبيلة على أواصر القرى قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ))⁽¹¹⁾.

فمن لا يعرف النسب لا يمكنه معرفة الناس وأصولها، فالنسب بمثابة الروح التي تهب الحياة، والدعامة القوية التي قام عليها نظام القبيلة فلا يمكن أن نتبع تطور القبيلة إلا إذا تابعنا المراحل التي تطور معها النسب، طالما أن النسب هوروح القبيلة، والقبيلة والنسب توأمان متلازمان يستمد أحدهما وجوده من الآخر، أي أن أي تطور على طرف يتأثر به الطرف الآخر مباشرة، قال ابن خلدون: ((اعلم أنه من البين أن بعضا من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقربا إلىهم أو حلف أو ولاء، ثم أنه قد يتناسب النسب الأول بطول الزمان، وينهب أهل العلم به فيخضى على الأكثر، وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب ويلتحم قوم بآخر))⁽¹²⁾.

فحفظ النسب استمرار لما كان عليه الجاهليون، وهويبدأ بالأب في الغالب، وبالأُم في حالات قليلة، وقد عرف بعض علماء اللغة النسب بأنه القرابة⁽¹³⁾، فالقرابة وصلة الدم هي المقومات التي قام عليها نظام القبيلة، ولم تحدد الشروط في الحد الأدنى، أو الحد الأكبر للقبيلة، وذلك من ناحية عدد العشائر والبطون والأفخاذ، ولم يعثر كذلك على حد معين إذا بلغته جماعة من الناس، وجب إطلاق لفظة قبيلة

(10) حداد ص 258 259

(11) سورة الحجرات: الآية 13

(12) ابن خلدون: المقدمة ص 130

(13) لسان العرب مادة نسب، علي: المفصل ج 4 ص 354

عليها، بل نجد علماء النسب يطلقونها أحيانا على بطون وأفخاذ، فيقولون مثلا قبائل قريش، ويذكرون أسماءها، بينما هي في الواقع أرهاط وبطون.

صفات القبائل:

القبائل مثل الدول أنماط ودرجات منها قبائل قوية نشطة تعتمد على نفسها في الدفاع عن كيائها، ومنها قبائل صغيرة تركز إلى التحالف مع القبائل الأخرى لتحافظ على وجودها، وبسبب ذلك وجد لكل قبيلة صفة وتسمية تميزها عن غيرها، فالقبائل التي تستقل بنفسها، وتستغني عن غيرها سميت بالأرعى⁽¹⁴⁾، شُبهت بالأرعى لأنها لم تبحر أوطانها، ودارت في دورها كالأرحاء على أقطابها، إلا أن ينتج في البرحاء وعام الجذب وذلك قليل منهم⁽¹⁵⁾.

ولعلنا نستطيع أن نطلق على هذه القبائل تسمية القبائل نصف المتجولة، فالأرض تدور حول نقطة ثابتة مركزية وكذلك هذه القبائل، فمن أرحاء القبائل الست: اثنتان في مصر تيم بن مرة، وأسد بن خزيمه⁽¹⁶⁾.

أما القبيلة التي تفرعت منها قبائل وبطون، واستقلت بأسمائها وصارت كأنها جسد قائم، وكل عضو مكتف باسمه معروف بموضعه⁽¹⁷⁾، فأطلق عليها لفظ الجمجمة، وكأننا بها من القبائل الرئيسة عند الجاهليين وأنها بمنزلة الرأس من جسم الإنسان.

وقد قيل أن جماجم العرب ثمان، أربع منها في مصر، اثنتان في قيس، واثنتان في خندف، ففي قيس غطفان وهوازن، وفي خندف تميم وكنانة⁽¹⁸⁾..

(14): لسان العرب مادة رجا، علي: المفضل ج4 ص 332

(15): العقد الفريد ج3 ص 289

(16): العقد الفريد ج3 ص 289.

(17): العقد الفريد ج3 ص 289.

(18): لسان العرب مادة جمر، علي: المفضل ج4 ص 332

أما جمرات العرب فهي القبائل التي تجمعت على أنفسها، فلم تدخل مع غيرها في أحلاف قبلية مأخوذة من التجمير وهو التجميع، أو من الجمر لقوتها، والجمرة اجتماع القبيلة الواحدة على من ناوأها من سائر القبائل⁽¹⁹⁾.

وذكر بعضهم أن الجمرة القبيلة التي يكون فيها ألف فارس، وقيل ثلاثمائة فارس أو نحوها، أي أن الجمرة هي القبائل القوية التي تعتمد على نفسها في القتال، وعلى هذا لعل التكوين العسكري، هو السبب في تسميتها الجمرات، فقبيلة فيها ألف فارس أو أكثر أو أقل من الطبيعي أن تكون ذات قوة وبأس شديد، وجمرات العرب أربعة وهم بنونمير بن عامر بن صعصعة، بنو الحارث بن كعب، بنو ضبة كعب بن بغيص⁽²⁰⁾. فطفئت منهم جمرتان بنو ضبة لأنها صارت إلى الرياب فحالفتها، وبنو الحارث لأنها صارت إلى مذحج فحالفتها، ومن القبائل الرضفات وهي أربع عرفت بشدتها وبأسها كشيبيان وتغلب وبهراء وأياد⁽²¹⁾.

أما سليم وهو وزن من قيس عيلان، وغلطفان وأعصر ومحارب بن خصفة فقد عرفت بأثافي العرب⁽²²⁾، والأثافي العدد الكثير والجماعة من الناس⁽²³⁾، هذه القبائل التي تفرعت منها جملة قبائل ولنسميها أم القبائل، لقبّت كل قبيلة تفرعت منها بلقب أشار إلى صفة لها، فبعض الألقاب أشارت إلى القوة والبأس كبنو أسد تشبيها لها بالأسد⁽²⁴⁾، وبعضها الآخر أشار إلى المكان الذي أقامت فيه القبيلة كبنو غسان⁽²⁵⁾، أو العمل الذي قامت به كالرياب قيل لأنهم تحالفوا فقالوا:

(19) : لسان العرب مادة جمر، علي: المفصل ج 4 ص 332.

(20) : المحبر ص 234، العقد الفريد ج 3 ص 318، سبائك ص 172، لسان العرب مادة جمر، تاج العروس

مادة جمر، علي: المفصل ج 4 ص 332 - 333

(21) : المحبر ص 234، علي: المفصل ج 4 ص 334

(22) : المحبر ص 234، علي: المفصل ج 4 ص 334

(23) : لسان العرب مادة أثف

(24) : ابن دريد: الاشتقاق ج 2 ص 435

(25) : ابن دريد: الاشتقاق ج 2 ص 435

اجتمعوا كاجتماع الريابة وهي خرقة تجمع فيها القداح وقال قوم بل غمسوا أيديهم في رب وتحالفوا⁽²⁶⁾، وكبنو خزاعة من قولهم انخزع القوم عن قوم إذا انقطعوا عنهم وفارقوهم، وذلك انهم أنخزعوا عن جماعة الأسد أيام سيل العرم لما أن صاروا إلى الحجاز⁽²⁷⁾، فذهب هذا النعت بين الناس وصار سمة لها، أما إذا كان في القبيلة اسمان متوافقان كالحارث مثلاً وكان أحدهما ولد الآخر وبعده في الوجود - أي أحدهما والدا والآخر ولدا - عبروا عن الوالد أو السابق منهما بالأكبر، وعن الولد والمتأخر بالأصغر، على أن هذا التعبير ينطبق أيضاً على الأخوين إذا كان أحدهما أكبر من الآخر ويحمل الاسم نفسه⁽²⁸⁾، وسميت القبائل في أغلب الأحيان بأسم الأب الوالد للقبيلة كمضر، أو باسم أم القبيلة كخندف، وربما نسبت إلى الحاضنة كقبيلة بأهله، وفي أحوال نادرة، كان أسم القبيلة يؤخذ من مناسبات خاصة، وقد يكون أسم حلف تألف أو اسم موضع أقامت به القبيلة أو له عبد⁽²⁹⁾، 00000 الخ. فقريش عمارة من قبيلة كنانة⁽³⁰⁾، تولت أمر مكة قبل الاسلام ما يقصر عن مائة سنة، وربما أزيد من ذلك، وقد وليت أمر البيت بعد خزاعة⁽³¹⁾.

(26) : ابن دريد: الاشتقاق ج 1 ص 180

(27) : ابن دريد: الاشتقاق ج 2 ص 468

(28) : صبح الأعشى ج 1 ص 312، القلقشندي (أبي العباس) قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري - دار الكتب الحديثة - القاهرة ط 1 1383 - 1963 ص 22 يختصر إلى قلائد الجمان،

(29) : ابن سلام (أبي عبيد القاسم) النسب، تحقيق مريم محمد خير الدرع، جامعة دمشق 1986 - 1987 ص 108 يختصر إلى ابن سلام النسب، سبائك ص 18، قلائد الجمان ص 21، علي: المفصل ج 4 ص 340 وما بعد.

(30) : السمعاني (أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي) الأنساب، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى بيروت - لبنان 1980 م، ص 50 يختصر إلى السمعاني الأنساب سبائك ص 13، ابن رشيق: العمدة ج 2 ص 154، جواد: المفصل ج 1 ص 509

(31) : ابن هشام: السيرة ج 1 ص 130، وما بعد، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 256، وما بعد، الكامل في التاريخ ج 2 ص 19 وما بعد، شفاء الغرام ج 1 ص 105

نستطيع أن نطلق عليها اصطلاحاً اسم قبيلة، فنقول: هي قبيلة كبيرة من نسل
فهر بن مالك بن النضر⁽³²⁾، وهي من القبائل العدنانية، وقد قيل قریش اسم وفهر
لقب غلب عليه⁽³³⁾، فما كان فوق فهر فليس يقال له قرشي، وإنما يقال له
كناني⁽³³⁾ تبدأ المعرفة بقبيلة قریش ابتداء من قصي زعيم قریش، ومجموعها الذي
أخذ أمر مكة فوضعه في يديه، ثم في أيدي أولاده من بعده، فقد كان صهرا لحليل
ابن حبشية⁽³⁴⁾، فلما توفي ولي أمر الكعبة بعد أن حارب خزاعة، وانتصر عليها مع
ما تجمع له من رجال قریش، وبمعونة أخيه لأمه وأخواله العدنيين، فكان أول رجل
من كنانة أصاب ملكاً⁽³⁵⁾، أي أن قصيا أكتسب الأولوية في سدانة البيت، وزعامة
مكة، فإلى أي شيء استند ؟

بالطبع استند إلى المال على حد تعبير ابن إسحاق ((وعندما هلك سيد خزاعة
000 وانتشر ولد قصي وكثر ماله وعظم شرفه 000 رأى أنه أولى بالبيت وأمر
مكة))⁽³⁶⁾، فانتشار الولد لم يكن وحده معياراً للأولوية، والشرف على ما يبدو من
نص الرواية إنه أمر أكتسب اكتساباً في زمن معين وهو غير الشرف الموروث الذي
كان من المعايير القبلية، بل هو الشرف الحادث في نجاحه في تحصيل المال ويشكل

(32) المصعب الزبيري (عبد الله) نسب قریش، نشر ليفي بروفنسال - دار المعارف ص 5 وما بعد يختصر إلى
نسب قریش، ابن خلدون: العبر ج 2 ص 324، نهاية الأرب ج 2 ص 280، علي: المفصل ج 4 ص 18.
(33) نسب قریش ص 12، قلائد الجمان ص 137

(33) :أبن الكلبي: النسب ج 1 ص 8، أخبار مكة ج 1 ص 108 - 109، المبرد: الكامل ج 1 ص 214، نهاية
الأرب ج 2 ص 352، البداية والنهاية ج 2 ص 200، شفاء الغرام ج 2 ص 63، 64 - 65، ابن خلدون:
العبر ج 2 ص 124، تاج العروس مادة قریش، برو، ص 172،

(34) :أبن الكلبي: النسب ج 1 ص 13، ابن هشام: السيرة ج 1 ص 123، أخبار مكة ج 1 ص 105 نسب قریش
ص 14، انساب الأشراف ج 1 ص 49 وما بعد، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 255 - 256، الكامل في التاريخ
ج 2 ص 19، البداية والنهاية ج 2 ص 205 وما بعد، بخيت (عبد الحميد) ظهور الاسلام وسيادة مبادئه،
مكتبة الانجلو المصرية ص 40 - يختصر إلى ظهور الاسلام،

(35) :أبن هشام: السيرة ج 1 ص 24، أخبار مكة ج 1 ص 105 وما بعد، انساب الأشراف ج 1 ص 50، تاريخ
الرسل والملوك ج 2 ص 256 وما بعد، الكامل في التاريخ ج 2 ص 20 وما بعد.

(36) :أبن هشام: السيرة ج 1 ص 123 - 124 وانظر أيضاً تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 255 الكامل في
التاريخ ج 2 ص 19.

هذا انعطافا اجتماعيا في مكة قبل الاسلام، إذ أنه عنى أن زعامة مكة، والوصول إليها أصبحت منذ عهد قصي تستند إلى المال بالدرجة الأولى، وليس إلى عرف قبلي تقليدي مقرر، حيث أثر المال في مجريات الواقع الاجتماعي الناشئ عن ذلك التطور.

وصارت قريش بذلك صاحبة مكة، وبالتجارة كانوا يعرفون ولذلك قالت كاهنة اليمن لله در الديار لقريش التجار، على أنه لم يكن لهم أب يسمى قريشا فينسبون إليه، ولكنه اسم اشتق لهم كما يرجح من التجارة والتقريش⁽³⁷⁾، وقريش بالأصل طبقتان: قريش البطاح الذين نزلوا بطحاء مكة وبطنها، وهم سادة القرشيين، فيهم بنوهاشم، وبنوأمية ومنازلهم بين أخشبي مكة (جبالها) وهم صباة قريش وصميمها وساداتها وأغنياؤها اختلطوا منازلهم في البطحاء وأنزلوها، فالبطون التي تعد من قريش البطاح هم: عبد مناف، بنوعبد الدار، بنوعبد العزى، بنوعبد قصي بن كلاب، بنوزهرة بن كلاب، بنوتيم بن مرة، بنومخزوم بن يقظة ابن مرة، بنوسهم، بنوجم، ابنا عمرو بن هصيص بن كعب، بنوعدي بن كعب، بنوحسل بن عامر بن لؤي، ضبة ابن الحارث بن فهر، بنوعتيك بن عامر بن لؤي⁽³⁸⁾، والقسم الثاني قريش الظواهر هم: بنومعريض بن عامر بن لؤي، بنوالادرم بن غالب بن فهر، والحارث ابنا فهر، إلا بني هلال بن أهيب بن ضبة وبني هلال بن مالك بن ضبة، وعامة بني عامر بن لؤي وغيره، عرفوا بقريش الظواهر لانهم لم يهبطوا مع قصي الا بطح⁽³⁹⁾، فسكنوا خارج مكة في أطرافها، وكانوا على ما

(37) : ابن هشام: السيرة ج 1 ص 96، هناك اشتقاق أخرى لاسم قريش انظر أخبار مكة ج 1 ص 108 (أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة ص 156، يختصر إلى رسائل الجاحظ، البداية والنهاية ج 2 ص 201.
(38) : المحبر ص 167، مروج الذهب ج 12 ص 32 ص 269، العقد الفريد ج 3 ص 273، ابن خلدون: العبر ج 2 ص 324، قلاند الجمال ص 138، ابن رشيقي: العملة ج 2 ص 156، علي: المفصل ج 4 ص 27.
(39) : : المحبر ص 167، مروج الذهب ج 12 ص 32 ص 269، العقد الفريد ج 3 ص 273، ابن خلدون: العبر ج 2 ص 324، قلاند الجمال ص 138، ابن رشيقي: العملة ج 2 ص 156، علي: المفصل ج 4 ص 27.
البكري: معجم ما استعجم ج 1 ص 89.

يبدو أعرابا لم يبلغوا مبلغ قريش البطاح في الاستقرار وفي اتخاذ بيوت من مدر، وكانوا يفخرون على قريش مكة بأنهم أصحاب قتال، وانهم يقاتلون عنهم وعن البيت، فهم يعتاشون من وراء الرعي ويمارسون الغزو والغارات بينما اتخذ القسم الأول التجارة ورعاية البيت الحرام موردا يعتاشون منه فأثروا ثراء عظيما.

فإن دل هذا على شيء فإنه يدل على الانقسام الاجتماعي داخل قبيلة قريش، فقريش البطاح هي الجماعة الثرية صاحبة الامتيازات والشهرة، وهم السادة أصحاب القوافل والجاه، وقريش الظواهر أدنى مكانة ومنزلة من قريش البطاح، إذا قريش بادية وحاضرة⁽⁴⁰⁾ على سبيل المثال.

وبما أن قريش البطاح قد اعتاشت من وراء التجارة، وخدمة البيت فقد خالطت أقوامها من ذوي المدينيات، وهذا ما اكتسبها فوائد معنوية وادبية واجتماعية وحضارية، مما جعل بعضهم يشيد بفضلها على سائر العرب، عن عبد الله بن مسعود أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: قريش الجؤجؤ، والعرب الجناحان والجؤجؤ لا ينهض إلا بالجناحين⁽⁴¹⁾ فلقريش مكارم وخصال بانتهى بها على جميع الناس⁽⁴²⁾. وهذه الإشادة من المؤرخين ربما أنتها لان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان من قريش.

واستوطن في الطائف بعض القرشيين واتخذوا الأموال والاصنام والمزارع، فلم ينسبوا لا إلى البطاح ولا إلى الظواهر.

وسكن إلى جانب هؤلاء جميعا جماعة من العرب مثل خزاعة، وبنو كنانة فقريش كما قلنا وان كانت من كنانة إلا أنها ميزت نفسها عنها وفرقت بينها وبين كنانة⁽⁴³⁾.

(40) علي: المفصل ج4 ص 281

(41) العقد الفريد ج3 ص 277

(42) ابن حبيب (أبي جعفر محمد) المنمق، صححه خير شيد احمد فارق ط1 - عالم الكتاب بيروت 1405

هـ - 1985 م ص 421 يختصر إلى المنمق، المحبر ص 165، رسائل الجاحظ ص 114 - 115 وما بعد.

(43) انظر قبل صفحات من هذا الفصل.

ووجد في مكة الأحابيش حلفاء قريش وهم بنو المصطلق، وبنو الحارث بن عبد مناة، وبنو الهون بن خزيمة أضف إلى ذلك عدد من العبيد والنصارى من المرجح أنهم دخلوا مكة تجار ومبشرين وحرفيين وأرقاء⁽⁴⁴⁾، جاء بعضهم من داخل شبه الجزيرة وجاء بعضهم الآخر من خارجها.

وأقامت ثقيف في الطائف، تقول الأخبار أن ثقيف هو قسي بن منبه بن بكر بن هوازن⁽⁴⁵⁾ نزل على عامر بن الظرب مستجيرا فزوجه ابنته زينب، أنزله منزله فولدت له عوفا وجشما، ثم ماتت فزوجه أختها فولدت له سلامة، ودارسا فانتسبا في اليمن فدارس في الأزد، والآخر في بعض قبائل اليمن ولم يزل ثقيف مع عامر حتى كثر ولده، وقوي جأشهم فتغلب عليهم وأخرجهم من الطائف وملكها⁽⁴⁶⁾، وأصبحت ثقيف اعز الناس بلدا، وأمنعه جانبا وأفضله مسكنا وأخصبه جنابا مع توسلهم الحجاز وإحاطة قبائل مضرو اليمن قضاة بهم من كل وجه فحمت دارها، وكاوتت العرب عنها⁽⁴⁷⁾، وضاهت مكة في الغنى والازدهار، وبنتيجة اشتغال أهلها بالزراعة والتجارة حتى قيل لها المكتن أو القريتين وفي القرآن الكريم إشارة إلى ذلك في قوله تعالى، منوها باستكبار المشركين أن يبعث محمدا رسولا بينما في مكة والطائف من هم في زعمهم اكبر حظا منه "وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ لَكُنَّ عَظِيمٌ"⁽⁴⁸⁾.

إن عناية أهل الطائف بالزراعة واهتمامهم بالتجارة مؤشرات على مدى التقدم الذي أحرزته هذه الواحة الجميلة ولهذا المستوى من التقدم اقترن اسمها بمكة،

(44) : اليقوي: تاريخ ج 1 ص 278، نسب قريش ص 9، انساب الأشراف ج 1 ص 76، تاج العروس مادة حبش، علي: المفصل ج 4 ص 30 - 31، جرجس أديان ص 81، بروص 174 حاشية.

(45) : ابن هشام: السيرة ج 1 ث 48، انساب الأشراف ج 1 ص 26، ياقوت مادة طائف، الكامل في التاريخ ج 1 ص 684، ابن خلدون العبر ج 2 ص 309 - 338، سالم ص 378، سعد: في تاريخ العرب قبل الاسلام ص 250 حاشية،

(46) : ابن خلدون: العبر ج 2 ص 338، الكامل في التاريخ ج 1 ص 684 وما بعد ياقوت مادة طائف،

(47) : انساب الأشراف ج 1 ص 27، البكري: معجم ما استعجم ج 1 ص 64 - 67، ياقوت مادة طائف،

كاوتت ردت لسان العرب مادة كوح.

(48) : سورة الزخرف الآية 31

فكانت بالطبع معظم أراضي الطائف وأخصبها ملكاً لأرستقراطيتها ولبعض أثرياء مكة ذلك إن إنتاجية الزراعة المربحة، كانت تجذب كما سبقت الإشارة كبار تجار مكة إلى توظيف بعض أموالهم في تملك الأراضي وإلى ترابط المصالح بين مكة والطائف.

ولعلنا نجد أن ثقيف حزيان: الأحلاف وبنو مالك⁽⁴⁹⁾، فالأحلاف منهم غيلان بن سلمة وكنانة بن عبد يا ليل، والحكم بن عمرو بن وهب بن معتب وربيعه ابن عبد ياليل وشرحبيل بن غيلان بن سلمة وعثمان بن أبي العاص واوس بن عوف ونمير بن خرشة بن ربيعة⁽⁵⁰⁾ وذكرت بطون أخرى من ثقيف كبنو عوف، وبنو سعد والتوسة⁽⁵¹⁾، وكان يسكن الطائف إلى جانب بني ثقيف جماعة من حمير من أزد السراة وقوم من قريش من كنانة وعذرة⁽⁵²⁾، كما سكنها جماعة من هوازن، والاوز والخزرج ومزينة وجهينة⁽⁵³⁾، وجماعة من اليهود " طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا بها للتجارة 00 ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف⁽⁵⁴⁾، وسكن جبل غزوان قبائل هذيل⁽⁵⁵⁾، وسكنها أيضاً قوم من الروم⁽⁵⁶⁾ وقبائل من بني هلال⁽⁵⁷⁾، أما الاوز والخزرج، وهما ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرؤ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وأهمهم قبيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة، وقد اختلف في نسب أهمهم⁽⁵⁸⁾،

(49) : الكامل في التاريخ ج 1 ص 685، سبائك ص 152، علي: المفصل ج 4 ص 150

(50) : ابن سعد: الطبقات ج 1 ص 312 وما بعدها - علي: المفصل ج 4 ص 150

(51) : سبائك ص 152

(52) : ياقوت مادة طائف

(53) : ياقوت مادة طائف، جواد: المفصل ج 1 ص 147 سالم ص 380، جرجس: أديان ص 228 - 229.

(54) : فتوح البلدان ص 67 - 68

(55) : ياقوت مادة طائف

(56) : ابن هشام: السيرة ج 2 ص 62، انساب الأشراف ج 1 ص 489، جرجس: أديان ص 81.

(57) : الصفة ص 260

(58) : ابن خلدون: العبر ج 2 ص 288، ياقوت مادة طائف، سمهودي ج 1 ص 167 - 173 علي: المفصل ج 4

وقد هاجرت قبائل الأزد بعد حادثة سيل العرم إلى الشمال، وتوزعوا في أماكن متعددة، كان منهم الأوس والخزرج الذين استقروهم المطاف في يثرب وحين نزلوها كان بها جماعة من اليهود أمثال بنوقريظة، بنوالنضير بنومحمم بنوزعورا، بنوقينقاع، بنوثعلبة، أهل زهرة، أهل زباله، وأهل يثرب وبنوعكوة وبنومرانه⁽⁵⁹⁾، كان ملكهم رجلا مستبدا يعتدي على نساء الأوس والخزرج فقتله منهم مالك بن العجلان بن زيد السالمي الخزرجي، وصار الأوس والخزرج منذ ذلك الحين سادة يثرب، وصارت لهم الأموال والأطام وتفرقوا في عالية المدينة وسافلتها⁽⁶⁰⁾، هذا الخليط من السكان في يثرب يضاف إليه بطون الخزرج الخمسة وهي: عمرو بن الخزرج، عوف بن الخزرج، جشم بن الخزرج، كعب بن الخزرج، الحارث بن الخزرج⁽⁶¹⁾. ويطون الأوس عوف بن مالك، عمرو بن مالك، مرة بن مالك، جشم بن مالك امرؤ القيس بن مالك⁽⁶²⁾، لم يكن لهم غاية مشتركة، مما جعلهم في نزاع مستمر أضف لذلك استبداد ملك اليهود، وغيره العربي على العرض والشرف مما حدى بواحد منهم إلى التمرد على الظلم وقتل الظالم عندما سنحت له الفرصة.

بعد ذلك عاش الأوس والخزرج متفقي الكلمة، متحدي الصفوف حينما من الزمن، إلى أن وقع الخلاف بين الأخوين، وانتهى الأمر بقيام حروب بينهما أولها حرب سمير وآخرها يوم بعث⁽⁶³⁾، تدل هذه الحروب على تفكك الروابط الجماعية، وظهور الملكية الخاصة، والرغبة في التحرر من هيمنة القبائل الأقوى، والتخلص من

⁽⁵⁹⁾ : شفاء الغرام ج2 ص 315 - 326، الأغاني ج22 ص 109، سميدي ج1 ص 160، الخطراوي (محمد العبد) شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج دار القلم - دمشق بيروت ط1 1400 هـ - 1980 ص 35، يختصر: خطراوي: شعر الحرب

⁽⁶⁰⁾ : ياقوت مادة يثرب، سميدي ج1 ص 177، 190، وما بعد، سالم ص 392

⁽⁶¹⁾ : ابن حزم الأندلسي (محمد علي بن أحمد بن سعيد) جمهرة انساب العرب تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون - دار المعارف بمصر 1382 هـ 1962 م ص 346 يختصر إلى جمهرة انساب العرب، ابن خلدون: العبر ج2 ص 288، سميدي ج1 ص 177،

⁽⁶²⁾ : جمهرة انساب العرب ص 332، ابن خلدون العبر ج2 ص 288، سميدي ج1 ص 176 وما بعد،

⁽⁶³⁾ : الكامل في التاريخ ج1 ص 658 - 680، سميدي ج1 ص 215 وما بعد، جاد المولى، أيام العرب ص

الظلم والتعسف والتبعية، وإلى التسابق للسيطرة وامتلاك عدد أكبر من الأراضي وتدل أيضا على بقاء الروح الأعرابية حيث كان الغزو في نظرهم بمثابة مورد اقتصادي يفيد منه جميع أفراد القبيلة، فلم تتميز حياة البطون اليثريية بشيء عن حياة القبائل البدوية في الجزيرة العربية إلا بالاستقرار الذي فرضته عليها الحياة الزراعية.

العناصر التي تتألف منها القبيلة:

كانت القبيلة العربية قبل الاسلام على مثال غيرها من القبائل القديمة فيها جميع الأقارب من ناحية الذكور (العصبة)⁽⁶⁴⁾، وهم أبناء القبيلة الصرحاء وفيها في كثير من الاحيان الموالي والأدعياء والعبيد... الخ. الذين ألفوا من الناحية القانونية والاجتماعية ما يشبه الشخص الواحد، فاندمجوا في القبيلة عن طريق الحلف أو الجوار أو المواخاة... الخ وكان التمايز الاجتماعي واضحا بين الفئة العليا وبين الفئات السفلى التي تؤلف سواد العرب.

1- الصرحاء:

وهم الفئة الممتازة التي لها الصدارة في القبيلة والمركز المرموق، وهم بنية القبيلة الذين يجمعهم نسب واحد، ودم مشترك لم تلحقه هجنة⁽⁶⁵⁾، والصريح النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معانهم⁽⁶⁶⁾ حسب قول ابن خلدون. تمتعت هذه الفئة بحقوق كثيرة يقابلها في كثير من الاحيان كثير من الواجبات نظمها القانون العربي على أساس التضامن التام بين الفرد والجماعة.

(64) : وإي ص 9، الجمالي (حافظ) علم الاجتماع - مطبعة الجامعة السورية 1373 هـ - 1954 م ص 17.

يختصر إلى جمالي: علم الاجتماع.

: الهجين ابن الامة لسان العرب مادة هجن

(65) : التبريزي: (أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب) ديوان الحماسة، دار القلم بيروت لبنان ج 1 ص 30

يختصر إلى التبريزي، ديوان الحماسة،

(66) : ابن خلدون، المقدمة ص 129

فمن حق الفرد على القبيلة حمايته حيا وميتا، فإذا قتل لم تترك دمه يذهب هدرًا⁽⁶⁷⁾، وهي مسؤولة عن أية جريمة يرتكبها، وعليها واجب الانتصار له مظلوما، والوقوف إلى جانبه ظلما، وكان يكفي أن يستغيث فإذا السيوف مسلطة والرماح مشرعة، وإذا الدماء تتصبب لاقل الأسباب، لان فخر العرب بالنسب الصريح قال السموأل⁽⁶⁸⁾:

علونا إلى خير الظهور وروحطنا لوقت إلى خير البطون نزول
فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهم ولا فينا يعد بخيل

ومنحت القبيلة الصريح حق التصرف كالإجازة، وهي أبرز حقوق المواطنة في القبيلة العربية وأخطرها، فإذا أجاز أحد الصرحاء في القبيلة رجلا آخر من قبيلة أخرى، تعين على القبيلة إن تقر ذلك، ولو كان المجير صغيرا، أو كان امرأة مادام من صميمها⁽⁶⁹⁾.

ومقابل ذلك كان من واجبه تجاه قبيلته أن يتضامن معها، وأن يهب لتلبية نداءها وأن يعمل من أجلها ولا يتصرف إلا في حدود النطاق الجماعي الذي يحفظ عليها وحدتها، فلا يخرج عن العرف والتقاليد، ولا يحملها ما لا تطيق ويهدر في سبيلها كل نزعة فردية أو انفصالية من نفسه، فهو يضحى لها بنفسه كما يضحى لها بماله، فهي حياته وكيانه، وهو مع اعتزازه بشخصيته وحرية يعيش لها وتحت إطارها، فحين يتكلم فباسمها، وكأن شخصيته انحلت بداخلها.

قال الشاعر⁽⁷⁰⁾

⁽⁶⁷⁾ : شريف ص 32

⁽⁶⁸⁾ : التبريزي: (أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب) ديوان الحماسة، دار القلم بيروت لبنان ج 1 ص 30

يختصر إلى التبريزي، ديوان الحماسة،

⁽⁶⁹⁾ : ابن هشام: السيرة ج 2 ص 8 - 9

⁽⁷⁰⁾ : التبريزي: ديوان الحماسة ج 1 ص 337، الأغاني ج 10 ص 8 جرجس: أدیان ص 141 - 142.

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ففي مكة اعتبر قرشيوها أصل المجتمع المكي، وكل من عداهم من العرب الأحرار، انضم إليهم عن طريق التبعية أو الجوار أو الولاء فكانوا أما موالى لهم أو عبيد، وكان في أعلى السلم الاجتماعي قريش البطاح فهم الذين استأثروا بالحكم والرياسة، والثروة، وكانوا أصحاب الكلمة العليا في مكة وفي المجتمع الحجازي

2- الموالى:

إن كلمة مولى تحمل معاني كثيرة، فهي تعني المالك والعبد والمعتق والصاحب والجار والحليف والناصر والصديق والشريك وابن العم والأخ والابن⁽⁷¹⁾. قال تعالى ((يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَمَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُو لَهُمْ صُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِيَنْسَرَ الْمَوْلَى وَلِيَنْسَرَ الْعَشِيرُ))⁽⁷²⁾ وقال عز وجل ((وَاغْنِمْهَا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ))⁽⁷³⁾.

فالموالى أنواع: موالى نسب، موالى جوار، وحلفاء قال النابغة الجعدي⁽⁷⁴⁾:

موالى حلف لاموالى قرابة ولكن قطينا يسألون الأعادي

وأنشد غيره⁽⁷⁵⁾،

نبئت حيا على نعمان أفردهم مولى اليمين ومولى الدار والنسب

فمولى اليمين الحليف، ومولى الدار الجار، ومولى النسب ابن العم⁽⁷⁶⁾ يضاف إلى هذه الطبقة الخلاء الذين خلعتهم قبيلتهم وفصلتهم عنها وتبرأت منهم لجرائم

(71) : لسان العرب مادة ولي،

(72) : سورة الحج: الآية 12 - 13

(73) : سورة الحج: الآية 78

(74) : لسان العرب مادة ولي، الجعدي (الناطقة) ديوانه: دار صادر، بيروت ص 178 - يختصر إلى ديوان النابغة

الجعدي

(75) : ابن رشيقي: العمدة ج 2 ص 159، علي: المفصل ج 4 ص 368

ارتكبوها، ثم دخلوا في قبيلة أخرى على أساس الموالة بالجوار، ودخل فيها الصعاليك المغامرون، والعتقاء الذين كانوا بالأصل عبيدا ثم اعتقوا وسنفصل الحديث عن كل هؤلاء فيما بعد.

أما من حيث حقوق وواجبات كل منهم، فهي مختلفة فأبن العم هو من أبناء القبيلة الصرحاء، وبالتالي ليس بمنزلة الجار والحليف، بل هما أدنى منزلة منه لعدم التكافؤ في القوة والنسب، فلا يحق للمولى الزواج إلا من موالي بعض القبائل، ويدعى في هذه الحالة بمولى الرحم⁽⁷⁷⁾، ولا يحق له الإجارة لأنه يكون حليفاً، والإجارة كما وجدنا من حق الصرحاء فقط⁽⁷⁸⁾.

ودية المولى نصف دية الصريح⁽⁷⁹⁾، فقد ورد في الحديث عن يوم سميحة أن دية الحليف خمسين والصريح مائة⁽⁸⁰⁾ وذلك لأن الرابطة التي تربط المولى بالقبيلة تحل بمجرد خروجه من حمى القبيلة، ومولى الحلف أوثق من مولى الجوار، فرابطة الجوار موقوتة، تبقى ببقاء الجار في كنف مجيره، وتحل بخروجه، ومن ثم مولى الحلف يقسم عند الانضمام إلى القبيلة فيكون ولاؤه مقدسا⁽⁸¹⁾، وسنفصل ذلك في الأحلاف القبلية، ودخل في إطار الموالي كما قلنا العتقاء، وهم الذين كانوا في الأصل عبيدا ثم اعتقوا⁽⁸²⁾، وارتبطوا بالسيد برابطة الولاء⁽⁸³⁾.

(76) : المفضليات ص 654، علي: المفصل ج 4 ص 368 .

(77) : زيدان تاريخ التمدن الإسلامي ج 4 ص 31 علي: المفصل ج 4 ص 368، صباغ المرأة ص 152،

(78) : ابن هشام: السيرة ج 2 ص 20

(79) : صفوت (أحمد زكي) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة - دار الحديث، ط 1 1985 م ص

13 يختصر إلى جمهرة خطب العرب.

(80) : ديوان حسان بن ثابت ص 39 - 40

(81) : التبريزي: ديوان الحماسة ج 1 ص 147 حاشية

(82) : لسان العرب مادة عتق زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ج 4 ص 29، شوقي، العصر الجاهلي ص 67.

(83) : لسان العرب مادة ولي، زيدان تاريخ التمدن الإسلامي ج 4 ص 29، شوقي، العصر الجاهلي ص 67.

سالم ص 436.

ويبدو من روايات أهل الأخبار أن عدد موالي قريش كان كبيرا، وقد تمتعوا بمركز كبير، وأصبح بعضهم مسموع الكلمة، مطاعا بين مواليه لأن المجتمع المكي أفسح صدره لهم، وأحل لهم منزلة رفيعة تبعا لسياسته العامة التي قامت على تنشيط التجارة، والرغبة في الإفادة من جهودهم وخبراتهم، والحرص على إشراك القبائل العربية في تجارتها، والرغبة في حسن الصلة معها.

بالمقابل أخلص هؤلاء لقريش إخلاصا شديدا، فقاتلوا في صفها، واعتمدت عليهم اعتمادا كبيرا في صراعها ضد يثرب بعد الهجرة النبوية، وتحملوا 40 % من الخسائر⁽⁸⁴⁾، والنظر إلى قائمة المهاجرين مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى يثرب يتبين لنا ضخامة العدد، وكانوا ممن ارتبط بقريش عن طريق الحلف كما أسلفنا القول. وقد حصل بعض الموالي في مكة على ثروات طائلة، وأسهموا في حياة البلد العامة، وتمتعوا بمكانة رفيعة، وبنفوذ كبير في المجتمع المكي مثل الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي الذي أثر على حلفائه من بني زهرة، فأقنعهم بالرجوع وعدم المشاركة في موقعة بدر مع إجماع قريش على الخروج لقتال المسلمين، فرجعت بنو زهرة مع الأخنس، ولم يشهدوها زهري واحد، أطاعوه وكان فيهم مطاعا⁽⁸⁵⁾.

3- الرقيق:

هي الفئة الدنيا في القبيلة، وكانت تؤلف عددا كبيرا في المجتمع القبلي في الجاهلية، وهم إما رقيق أبيض، وإما رقيق أسود، لا يملكون أية وسيلة للإنتاج، بل هم أنفسهم مملوكون يعملون في خدمة الأرستقراطية البدوية والحضرية وأثرياء التجار. وكانت مصادر الرقيق في الجاهلية من السبي، والنخاسة، وعبودية الدين فالأرقاء من مصدر الأسر، هم أولئك العرب من الرجال والنساء الذين كانوا يقعون في أيدي القبيلة في حروبها، وقد تكرر في الأخبار ذكر السبي والسبية والسبايا،

(84) : ابن هشام: السيرة ج2 ص 112 وما بعد، عوض الله: مكة ص 155 - 156، دلوج 1 ص 173

(85) : ابن هشام: السيرة ج2 ص 271، دلوج 1 ص 173

والسبي النهب واخذ الناس عبيدا وإماء. والسبية المرأة المنهوبة⁽⁸⁶⁾، فسبي الرجال والنساء أمرا أساسيا في كل غارة.

وكان يحدث أحيانا أن تباع القبيلة أسراها، فالأسير الذي لا يفتديه قومه يسترق ويباع في الأسواق، مثال على ذلك سلمان الفارسي اختطف أثناء خروجه من العراق إلى الشام، فاسترق وبيع لبعض يهود المدينة⁽⁸⁷⁾، وكان زيد بن حارثة مولى الرسول صلى الله عليه وسلم من قضاة أصابه سباء في الجاهلية لأن أمه خرجت به تزور قومها بني معن فأغار عليهم خيل بني القين بن جسر فأخذوا زيدا، فقدموا به سوق عكاظ فاشتره حزام لعمته خديجة وقيل اشتراه من سوق حباشة فوهبته خديجة للنبي⁽⁸⁸⁾، وسبيت أم عمرو بن العاص وبيعت في سوق عكاظ⁽⁸⁹⁾.

يستنتج مما تقدم أن بيع الأسرى كان نشطا في أسواق مكة وكانت تجارة الرقيق منتظمة تروجها الحروب التي كانت تقوم بين القبائل المجاورة. وتجدر الإشارة إلى أن الأسرى العرب في الحروب القبلية كانوا قلة بالنسبة للأرقاء الأجانب وذلك لأنهم يتحررون من الأسر بحرب مضادة تشنها القبيلة التي ينتمي إليها الأسرى على القبيلة التي أسرتهم وما بتقديم الفدية، ولم يكن يصير إلى العبودية من الأسرى العرب إلا من لم يكن يتيسر له أحد يدفع فديته، أولم يكن بقدرته أن يفدي نفسه.

وأكثر عبيد الحجاز في فترة الجاهلية الأخيرة كانوا من الغرباء الأجانب سودان استقدموا من سواحل أفريقية الشرقية ومن الحبشة بخاصة، وبيض من بلاد فارس والروم كسلمان الفارسي السابق الذكر وصهيب الرومي، على أن الرقيق الأبيض كان أغلى ثمننا من سواء لأنه أكثر ثقافة، وكان يحسن من الأعمال ما لا يحسنه العبيد السود، فوكل إليهم إدارة المبيعات، والقيام بالحرف التي تحتاج إلى خبرة

(86) : لسان العرب مادة سبي.

(87) : أنساب الأشراف ج1 ص 486 - 487.

(88) : أسد الغابة ج2 ص 224

(89) : أسد الغابة ج4 ص 116، أسواق ص 278 حاشية، برو ص 258.

ومهارة، وفن كالبنا والنجارة فقد أشير إلى عامل رومي أستخدم في بناء الكعبة عندما أرادت قریش تجديدھا⁽⁹⁰⁾.

عرف تجار الرقيق باسم النخاسين وكان منهم عبد الله بن جدعان⁽⁹¹⁾، فمع نمو الحركة التجارية واستفحال الريا والاستثمار الربوي، كان عدد العبيد يتزايد بما ينضاف إليهم من رقيق الدين، وهم من الأحرار العرب كانوا يستعبدون عند عجزهم عن دفع الدين وفوائده الفاحشة للمرابين. وبالنظر لشراء الأرستقراطية المكية وتوسع أعمالها وتشعبها فقد استخدموا في أعمال إنتاجية وفي أنواع الحرف، واستخدموا أيضا كمحاربين في القتال لصالح أسيادهم، وكحماة وحراس للقوافل التجارية الخاصة بالأغنياء، وفي أعمال الخدمة البيتية في منازل أثرياء التجار والمرابين ووجهاء القبائل، حيث كان كل شريف من الأشراف يحرص ألا يخلو داره من عبيد.

وساء وضع العبيد على الإجمال فقد سلبتهم الأرستقراطية العربية من جميع الحقوق وفرضت عليهم من الواجبات ما أرهق كاهلهم وأهدر إنسانيتهم، وباعدت بينهم وبين الحد الأدنى من حياة اجتماعية، فليس للعبد الحق أن يتزوج إلا بأذن سيده على أن يتزوج عبدة مثله، ولم يكن من السائع أن يقتص حر بعبد فإذا قتل أحدهم عبدا فلا يجوز أن يقتل به، ويقتل العبد بالحر طبعاً⁽⁹²⁾، وبلغ من سوء وضع العبد أن أحدهم إذا امتلك عبدا، وضع في عنقه حبلا وقاده كما تقاد الدابة إلى منزله، وكانوا يبتاعون الأرقاء ويتهادونهم ويتوارثونهم مثل سائر الأمتعة، وقد يخرجون العبيد في جملة صداق العرائس⁽⁹³⁾.

(90) أخبار مكة ج 1 ص 157.

(91) تاج العروس مادة نخس، حسن: النظم الإسلامية ص 360

(92) دروزة عصر النبي ص 383

(93) خليل (أحمد خليل) مضمون الأسطورة في الفكر العربي دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ط 1

حزيران 1973 ص 83 يختصر إلى مضمون الأسطورة في الفكر العربي.

وأكثر من ذلك أن الرجل كان يتسرى بإمائه، وكانت الأمة مصدر بهجة ومتعة تدخل السرور إلى مالکها، فإذا ولدت ألحق هؤلاء الأولاد بالعبيد لأنهم جاؤوا ثمرة لصلة غير متكافئة كعنترة بن شداد⁽⁹⁴⁾، كان من أغربة العرب.

ويسبب دنو منزلة هؤلاء تطلع بعضهم إلى استرداد حريته وكان يتم ذلك بعدة طرق، فإن أدى العبد إلى سيده خدمة عظيمة كأن ينقذه هو وأهل بيته من هلاك محقق، ويظهر في ذلك شجاعة نادرة تكون هذه الشجاعة شفيعة للتحرر كما حدث لعنترة بن شداد عندما أغار على بني عيس وأبلى بلاء حسناء كان سببا في عتقه وإلحاق نسبه بابيه⁽⁹⁵⁾.

وتحرر العبد بطريق المكاتب، وهو أن يكتب لمواليه بعته فالرقيق الذي يتحرر بهذه الطريقة يقال له المكاتب⁽⁹⁶⁾، على أن هناك طريقة أخرى لتحريرهم وهي أن يوصي سيده بعته بعد وفاته تقريبا للألهة ويسمى هذا بالمدير⁽⁹⁷⁾.

وبالنظر لانشغال أهل مكة بالتجارة الواسعة وتوسيع أعمالهم كما ذكرنا سابقا فقد وجدت هذه الفئة بكثرة في المجتمع المكي، وكانوا أكثر حظا من مثلهم في القبائل الأخرى، ثم مالبت يشرب أن نافست مكة في الثراء وامتلاك الرقيق. ولعل مما يدل على كثرتهم المفردة أن هند بنت عبد المطلب أعتقت في يوم واحد أربعين عبدا من عبيدها، كما اعتق أبو أحيحة سعيد بن العاص مائة عبد أيضا⁽⁹⁸⁾.

إذا كان الرقيق بضاعة ضرورية لا بد منها لاهل المال تدر عليهم أرباحا عظيمة، فهم آلات ذلك العصر، ومصدر من مصادر الاستغلال للحصول على الثروة ومكة بلد الأثرياء والتجار، لكن على الرغم من دنو منزلتهم فقد اندمج بعضهم بالمجتمع العربي الجاهلي اندماجا كاملا أو شبه كامل، واعتبر جزءا من الأسرة، ولنا في أم

(94) : الأغاني ج 2 ص 239، ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص 130، عوض الله مكة ص 157 سالم 497 .

(95) : الأغاني ج 8 ص 239 وما بعد .

(96) : انساب الأشراف ج 1 ص 487، الأغاني ج 17 ص 327 زيدان، تاريخ التمدن (إلا سلامي ج 4 ص 29

(97) : لسان العرب مادة دبر، شريف ص 309

(98) : عوض الله: مكة ص 157، دلوج 1 ص 170

أيمن التي شاركت في تربية الرسول صل الله عليه وسلم، واعترف لها بذلك، فقربها وأكرمها وناداهها يا أمة خير مثل على ذلك⁽⁹⁹⁾، إلا أن هذا لا يعني ارتفاع شأن العبيد عند كل القبائل، فقد بقوا أقل شأنًا من غيرهم وظل التفاوت الاجتماعي قائمًا حتى سمعنا بالمشاركة في امتلاك العبد أو الأمة⁽¹⁰⁰⁾، فلا تستطيع الحرة أن تتزوج من عبد، وإذا أراد أحدهم شتم آخر قال: يا ابن حمراء العجان أي يا ابن الأمة⁽¹⁰¹⁾.

ومما يلاحظ أن العبد الذي يعمل داخل المنزل يفضل أن يكون خصيًا، وإذا ما أسلمت المرأة الحرة لعبدها مراقبة أولادها أو مرافقتهم فإنها تجيز ذلك للذكور دون الإناث خشية الإساءة لهن ويبدو أنه كان يسمح للعبد بالتجول في داخل المنزل، والدخول إلى الغرف الخاصة، أما العمل الخارجي الذي قد تكلف به المرأة العبد هو معاونتها في تجارتها كما فعل ميسرة غلام خديجة عندما بعثته في تجارتها مع محمد صل الله عليه وسلم⁽¹⁰²⁾.

وبسبب استثمار أتعاب العبيد فمن الطبيعي أن توجد ظروف الاستغلال والشقاء المادي والمعنوي والعبودية بين العوام والأرقاء، وسائر المعدمين والبؤساء المضطهدين في النضال المشترك ضد الأرستقراطية العربية، والمكية بخاصة، في سبيل تحسين أوضاعهم وتحريرهم من الظلم الاجتماعي والرق.

4 - الاستلحاق:

الادعاء، واستلحقه أي ادعاه، والملحق: الدعي والملصق⁽¹⁰³⁾، كانت العرب في الجاهلية تستلحق شخصًا ما بنسبها، وتجعله في حمايتها ورعايتها، أي في عصبيتها، من الممكن أن يكون هذا الشخص صريح النسب أسيرًا، أو مولًى، أو عبدًا، ومن

(99) مروج الذهب ج2 ص275، كحالة: أعلام النساء ج1 ص107، صباغ المرأة ص272

(100) دروزة عصر النبي ص382

(101) لسان العرب مادة حمر، تاج العروس مادة حمر

(102) ابن هشام: السيرة ج1 ص199، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص280 الكامل في التاريخ ج2 ص39.

البداية والنهاية ج2 ص293.

(103) لسان العرب مادة لحق.

الممكن أن يكون لرجل عربي جوار غير عرييات فيلدن له أولاد من غيرزواج شرعي، فهذا الرجل له الخيار في أن يلحقهم بنسبه أولاً يلحقهم، فإن فعل ذلك أصبحوا يحملون نسب القبيلة⁽¹⁰⁴⁾، ومن هذا القبيل أبناء الإمام البغايا لأنه كان لاهل الجاهلية إماء بغايا، وكان سادتهن يُلمّون بهن⁽¹⁰⁵⁾ فإذا جاءت إحداهن بولد ربما ادعاء السيد أو الزاني فيقع الخلاف بينهما على الولد، حدث مثل ذلك أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، فقضى بإلحاقه بالسيد، لأن الامة فراش كالحرّة، فإن مات السيد ولم يستلحقه، ثم استلحقه ورثته من بعده لحق بأبيه وفي ميراثه خلاف⁽¹⁰⁶⁾، وكذلك كانت العرب في الجاهلية تتزوج المرأة وهي حامل من رجل آخر. فإذا ولدت على فراش زوجها الجديد، فإن هذا الزوج يلحق الولد به⁽¹⁰⁷⁾.

5 - الأدياء

يقال للمستلحق كما وجدنا الدعي، وهو المنسوب إلى غير أبيه وعشيرته⁽¹⁰⁸⁾ ومنه المتبنى الذي تبناه رجل فدعاه ابنه، ونسبه إلى غيره، فكان المقداد رجلاً من بني بهر سفك دما فيها وهرب إلى كنده، وانتسب إليها، ثم عاد فسفك دما في عشيرته الجديدة وهرب إلى مكة حيث تبناه الأسود الزهري، وأصبح يعرف بعد ذلك بالمقداد بن الأسود الزهري⁽¹⁰⁹⁾.

وقد كان باستطاعة الرجل أن يتبنى من يشاء من الأولاد رغبة في ولد نجيب أو مقدام، قال تعالى: ((وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْهَاهِكُمْ))⁽¹¹⁰⁾. ويتمتع المتبنى عادة بالحقوق المعترف بها للأبناء، لأنه أصبح واحداً من العائلة يرث كما يرثون، ولا يجوز لأبيه الذي تبناه أن يتزوج من امرأته، كما جرى في

(104) فروخ: تاريخ الجاهلية ص 150، بروص 257.

(105) مقاربة المعصية لسان العرب مادة لم.

(106) لسان العرب مادة لحق، علي: المنفصل ج 4 ص 357 - 358.

(107) انظر فصل الأسرة.

(108) لسان العرب مادة دعا.

(109) الزركلي: الأعلام ج 8 ص 208، جمعة ص 49.

(110) سورة الأحزاب: الآية 4.

عرف الدم والقريى بين الأبناء⁽¹¹¹⁾، أي كان حكم الدعي من الناحية القانونية في حكم النسب الصريح والبنوة الشرعية، وإذا كان الرجل دعي في رهط، وكان الرهط دعي في قبيلة يسمى حينئذ داعي أدعياء، مثل ابن هرمة كان دعيًا في الخلع وكان الخلع دعيًا في قريش⁽¹¹²⁾، ووجدت للدعي أسماء متعددة وكلها تعني من كان في القبيلة وليس من أبنائها الصرحاء، كالنقىل والحميل، والدخيل، والمولى، والمذبذب، والمنوط، والملصق⁽¹¹³⁾.

6- الجوار:

يقال للذي يستجير بك جار، والجار الذي أجرته من أن يظلم وأجاره أنقذه من شيء يقع عليه⁽¹¹⁴⁾.

وللجوار صلة بالنسب والعصبية، لأنه حين يتوثق، وتتقوى أواصره يصبح نسبا. فيدخل عندئذ نسب المستجير بنسب المجير، وهو من السنن التي حافظ عليها الجاهليون، واعتبروها كالقوانين، فإذا استجار شخص ما بآخر، أو استجارت قبيلة بآخرى، اكتسب هذا الجوار صيغة قانونية، ووجب على المجير المحافظة على حق الجوار، وإلا نزلت السبة بالمجير، وإزدراء الناس⁽¹¹⁵⁾، لأن حماية الجار فرض على القبيلة كلها تدافع عنه، وتقاتل طلبا لثأره، كما تقاتل طلبا لثأر الصريح منها⁽¹¹⁶⁾، فكان لمالك بن العجلان جار قتله رجل من بني عوف يقال له سمير، فبعث إليهم مالك قائلاً أنكم قتلتم قتيلاً فأرسلوا إلينا بقاتلة، فأبوا أن يعطوه إياه، وعرضوا عليه الدية فقبلها، فأرسلوا إليه يقولون: أن صاحبكم حليف وليس له إلا نصف الدية، فغضب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلا الدية الكاملة، أو يقتل سميراً، ومن

(111) صباغ: المرأة ص 85

(112) الأغاني ج 4 ص 368، علي: المفصل ج 4 ص 359

(113) لسان العرب مادة نوذ، علي: المفصل ج 4 ص 357.

(114) لسان العرب مادة جور، تاج العروس مادة جور

(115) علي: المفصل ج 4 ص 360

(116) انساب الأشراف ج 1 ص 73 - 74 الأغاني ج 3 ص 59 - 60 وما بعد، شريف ص 23

أجل ذلك نشبت الحرب بين الاوس والخزرج ولبثوا متحاربين عشرين سنة، يتعاودون القتال في تلك السنين إلى أن احتكموا إلى ثابت بن المنذر، فحكم بأن يؤدي حليف مالك دية الصريح ثم تكون السنة فيهم بعده على ما كانت عليه في الصريح على ديته والحليف على ديته⁽¹¹⁷⁾ ولهذا امتدحت العرب ذمة الجار وقالت: فلان منيع الجار حامي الذمار كقول الشاعر⁽¹¹⁸⁾:

هم يمنعون الجار حتى كأنه كشيبة⁽¹¹⁹⁾ زوربين خافيتي نسر

وكقول حجر بن خالد الثعلبي⁽¹²⁰⁾:

ونحن الذين لا يزرع جارنا وبعضهم للغد صم مسامعه
نلهق بضع اللحم للباع والندى وبعضهم تغلي بأنم مناقعه

وقال السموأل⁽¹²¹⁾:

لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل

وتتلخص حقوق الجار بالقول التالي: قد لزمني ذمامك، وأنا ما نك مما أمتع منه نفسي وأهلي وولدي ما بقي من عشيرتي الاذنين رجل، فضرب المثل بمن أحسن الجوار كأبي داود، والقصة هي أن أبا داود جاور كعب ابن مامة الأيادي، وكان إذا مات له بعير أو شاة أخلفها له⁽¹²²⁾، فالجوار حق أمانة⁽¹²³⁾:

فما أحد منا بمهد لجاره آذاه ولا مزرب به وهو عامد

⁽¹¹⁷⁾ جمعة ص 149

⁽¹¹⁸⁾ العقد الفريد ج 1 ص 121. 122

⁽¹¹⁹⁾ كشيبة: مجتمعة لسان العرب مادة كشب.

⁽¹²⁰⁾ التبريزي ديوان الحماسة ج 1 ص 198

⁽¹²¹⁾ التبريزي: ديوان الحماسة ج 1 ص 29

⁽¹²²⁾ الميداني: مجمع الأمثال ج 1 ص 136، الأصمعيات ص 213،

⁽¹²³⁾ ديوان حسان بن ثابت ج 1 ص 49 - 50

لأننا نرى حق الجوار أمانة ويحفظه منا الكريم المعاهد
 أولئك قومي فإن تسألني كرام إذا الضيف يوم ما ألم
 عظام القلوب لأيسارهم يكون فيها الممن السمن
 يواسون مولاهم في الغنى ويحمون جوارهم إذا ظلم

ولم يكتفوا بهذا القدر من الإجارة، فأجاروا الوحوش والهوام حتى قيل كأحمى من مجير الجراد، قالوا هومد لج بن سويد الطائي، وقالوا أيضا: كأحمى من مجير الطعن⁽¹²⁴⁾، ولكن لماذا وجد الجوار؟ وجد الجوار لأجل من سلك سلوكا شائنا يضر بسمعة القبيلة، فإن هذه القبيلة تخلعه أو أنه يخلع نفسه منها، ولصعوبة العيش فانه يلجأ إلى قبيلة أخرى يتصل بها، ويعيش في حماها على أساس الموالاة بالجوار بعد أن يطلبه من أحد أبناء هذه القبيلة، كذلك قد يخرج أحدهم لطلب ثأر من قبيلة أخرى، فيجد في نفسه ضعفا دون بلوغ غايته، فيلجأ إلى جوار أحد يحميه حتى يأخذ بثأره، اضافة إلى ذلك فإن القبائل تجير من ترى فيهم الحماية والعزة لحمايتها والاعتزاز بجوارها، قال تعالى: ((وَالْبَارِئِ ذِي الْقُرْسِيِّ وَالْبَارِئِ الْكُتْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنِّ وَالْجَنِّ وَالْجَنِّ))⁽¹²⁵⁾ 0000. ويتم الجوار أيضا بزواج رجل من قبيلة أخرى التحق بها، وأصبح في جوار قبيلتها فيتمتع بحمايتها، ويتصرف بأموال زوجته فيها⁽¹²⁶⁾. كما وجدنا من قس بن منبه عندما نزل على عامر بن الظرب مستجير⁽¹²⁷⁾.

(124) العقد الفريد ج1 ص 121 - 122 - الميداني، مجمع الأمثال ج1 ص 221، الاطوسي ج1 ص 144،

والظعن: الإبل عليها الهواجر، لسان العرب مادة ظعن.

(125) سورة النساء: الآية 36

(126) صباغ: المرأة ص 152

(127) ابن خلدون العبر ج2 ص 338، الكامل في التاريخ ج1 ص 684 وما بعد، ياقوت مادة طائف، سالم ص

378، سعد في تاريخ العرب قبل الاسلام ص 250 خاشية.

وقد يستجير رجل بقبر كقبر عامر بن الطفيل⁽¹²⁸⁾. وقد يستجير بمعبد كمكة وقد يستجير بجبل، فكانت العرب في الجاهلية إذا استجار أحدها يثرب قيل له: قوئل في هذا الجبل ثم قد أمنت، فإذا فعل أحد ذلك وجب على أهل يثرب قبول جواره، والدفاع عنه، فقوئل رجل من الخزرج اسمه غنم بن عوف بن الخزرج سمي به لأنه كان إذا أتاه مستجير قال له: قوئل في هذا الجبل وقد أمنت، أي أرتق، وقيل: لأنهم كانوا إذا أجاروا أحدا أعطوه سهما وقالوا له: قوئل به حيث شئت أي سربه حيث شئت، وذكروا أيضا أن القوئل اسم بطن من الأنصار اسمه ثعلبة بن دعد بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن الخزرج وقالوا: هو النعمان بن مالك بن ثعلبة⁽¹²⁹⁾، وبالطبع تكون الإجارة من الأقوى إلى الأضعف، حتى يكون بوسع المجير أداء أمانة الجوار، وأنه كفوء لأن يجير، وهي ناتجة عن ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والطبيعية، فالمخلوع مثلا لا يهدأ له بال حتى يجد حليفا أو جارا يتعهد له بحمايته، ويبذل العصبية له والدفاع عنه وهي دليل الرهبة والقوة وهذا مدعاة للفخر كقول الشاعر⁽¹³⁰⁾:

إنما جاري نعم ري	فأعلموا أدنى عيالي
وأرى للجرار حقا	كيمي من شميالي
وأرى ناقة جاري	فأعلموا مثل جمالي
إنما أناقة جاري	في جوارى وظلال لي
أن للجرار علينا	دفع ضميم بالعوالي

(128) الأغاني ج 17 ص 61، المنفصل ج 4 ص 363.

(129) علي: المنفصل ج 4 ص 362، جمعة ص 148.

(130) اليسوعي (لويس شيخو)، شعراء النصرانية قبل الاسلام، ط2، دار المشرق بيروت ص 546، يختصر إلى شعراء النصرانية،

فأقلى اللوم مهـالا دون عرض الجار مـالي

سأودي حق جاري ويدي رهـن فعـالي

وبالغوا في الإجارة، وحملوا الجار حتى من الموت، أي إذا مات دفع حاميه ومجيره ديته إلى أهله، كما وجدنا في قصة جار مالك بن العجلان ومن ذلك قول الشاعر⁽¹³¹⁾.

أيـا سـعد لا تغرر بـنفسك واحترز فاني من قوم عن الجار أموات

ودونك أنوادي إليـك فإنني خاذرة أن يغـاروا ببنيـاتي

لعمرك لوأصبحت في دار معشر متى يعد فيها النذب يعد على شاتي

ومن طرق الجوار أنه إذا أتى رجل إلى آخر ليستجيره ولم يجده عقد طرف ثوبه إلى طنب البيت، فإن فعل ذلك عد جاراً ووجب على صاحب البيت أن يجيره وإذا خاف أحدهم وورد على من يريد الاستجارة به نكس رمحه فإذا عرفه المجير رفع رمحه، وصار في جواره⁽¹³²⁾، وهذا ما فعله الحارث بن ظالم المري، حيث تنقل بين القبائل حتى وصل عكاظ، وبها عبد الله بن جدعان، فنكس رمحه أمام مضرية ثم رفعه حين عرفوه وأمن وأقام بمكة حتى أتاه أمان ملك الحيرة⁽¹³³⁾ ويتم الجوار أيضا بالطلب الصريح والإجابة، أوبياتيان عمل على الملأ من الناس في أماكن الاجتماع في الغالب في المواسم مثل الحج والأسواق. فإن علم الناس الخبر، صار المجار في ذمة المجير، وترتب على المجير أن يكون مسؤولاً عن كل ما يقع على المجير، ويصدر منه، وهذه الإجارة لا تكون عامة شاملة، بل يحدد الجوار بحدوده، كأن يحدد استجارته من قبيلة كذا، أو من القبائل الفلانية، أو من الشخص الفلاني، أو من

(131) شعراء النصرانية ص 155

(132) الأغاني ج 3 ص 59، جواد المفصل ج 2 ص 364.

(133) انساب الأشراف ج 1 ص 42 وما بعد، علي: المفصل ج 4 ص 364

عدو خاص، ولمدة معينة⁽¹³⁴⁾، فإن قبل المجير ذلك حدد جواره بما حدد في عقد الجوار، وإذا أراد خفرة الجار أعلن عن ذلك علانية حيث ورد أن خفرة الجار ثلاثة إلا إذا قبل المجير التجديد⁽¹³⁵⁾.

فإذا اعتدت على المستجير قبيلة أخرى، لم تذكر في نص الجوار، فلا ذمة للمستجير على المجير، وليس من حقه طلب مساعدته له، كما قد يحدد الجوار بزمان كإقامة شخص في مكان ما، أو إيصاله من موضع إلى موضع أو تعيين أمد له، ولذلك امتدح الجيران صنع مجيريهم لأنهم قاموا بواجبهم نحوهم، ولم يغدروا بهم⁽¹³⁶⁾.

المانع الجاري يوم الروع قد علموا ونوال الفضول بلا من ولا كسر
أنني شهدت كراما من مواطنه ليست بغيب ولا تقوال ذي هار
أيام نبيان إذ عض الزمان بهم كان الغياث لهم من هيشة الهور

ولما نزل قيس بن الحدادية عند بطن من خزاعة يقال لهم بنوعدي بن عمرو بن خالد بعد أن خلعه قومة آووه وأحسنوا إليه فمدحهم بقوله⁽¹³⁷⁾:

جزى الله خيرا عن خليع مطرد رجالا حموه آل عمرو بن خالد
فليس كمن يعزو الصديق بنوكه وهمته في الغزو كسب المزود
أولئك أخواني رجل عشيرتي وثروتهم والنصر غير المحار

(134) علي: المنفصل ج 4 ص 364 - 365، جمعة ص 152

(135) نهاية الأرب ج 15 ص 358

(136) ثعلب (أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى. الدار القومية -

القاهرة 1384 هـ - 1964 م ص 319 يختصر إلى ثعلب شرح ديوان زهير

(137) الأغاني ج 14 ص 152 - 153.

وبالمقابل من غدر بالجار ذموم، ورفعوا له لواء بسوق عكاظ ليشهروا به⁽¹³⁸⁾، ولذلك كثيرا ما وقعت المناوشات بين القبائل بسبب اهتمام حق الجار، كحرب داحس والغبراء مثلاً وحرب البسوس⁽¹³⁹⁾، 0000 الخ وعلى الرغم من ذلك ظل الجار يشعر بالغربة والذل والهوان لانه في دار غير دار قومه⁽¹⁴⁰⁾.

أبى الله للجيران إلا مذلة ومن يغترب عن قومه يتاذل

كان هذا دافعا للبعض على مصالحة قومه، فهدر كرامته بين أهله أهون عليه من ظلم الأبعد.

7- الموءاخاة:

هي العقد بين الأفراد، أو بين الجماعات كالعشائر والقبائل، وهي تدعو إلى التناصر والمؤازرة والمساعدة، قال تعالى: "هَارُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْرًا"⁽¹⁴¹⁾ وتؤدي إلى الموارثة، وليس لها شروط، فهي تكون بين بدو وبدو، أو بين حضر وحضر، أو بين حضر وبدو، لأنها عقد، والعقد يقع بين كل الناس، كما تقع بين عربي وأعجمي، فالرسول صلى الله عليه وسلم آخى بين الأنصار والمهاجرين أثناء الهجرة للمدينة⁽¹⁴²⁾، وآخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء، وغيرهم كثير⁽¹⁴²⁾، فإن كانت الموءاخاة بين شخص من داخل القبيلة، وآخر من خارجها تقاسم هذا الأخير طعاما مع ابن القبيلة، أو مص قطرات من جرح أحدثه في جسمه، فإن فعل ذلك عدا

(138) : أسواق ص 283، حسن: حضارة ص 106

(139) : الكامل في التاريخ ج 1 ص 568 - 569، جاد المولى (محمد أحمد) أيام العرب دار أحياء التراث العربي ص 250 يختصر إلى (جاد المولى أيام العرب، خشروم (عبد الرزاق) الغربة في الشعر الجاهلي - منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 1982 م ص 201 يختصر إلى خشروم: الغربة، جرجي: العرب قبل

الاسلام ص 319

(140) : خشروم: الغربة ص 202

(141) : سورة طه: الآية 30 - 31

(142) : ابن هشام: السيرة ج 2 ص 150، لسان العرب مادة آخا

(142) : ابن هشام: السيرة ج 2 ص 151 وما بعد

أبناء متبنى لهذه القبيلة مرغوبا فيه لتقوية العصبية القبلية، فالأخوة الصناعية تضارع الأخوة الطبيعية القائمة على علاقة الدم، وتصبح هذه مؤشرا نحو التماسك⁽¹⁴⁴⁾.

8 - الخلع والصلعة:

الخلع هو الترك للشيء أو التبرأ منه⁽¹⁴⁵⁾، والخلع يجني الجنايات يؤخذ بها أوليائه، فيتبرؤون منه ومن جنائته ويقولون: أنا خلعنا فلانا فلا نأخذ أحد بجناية تجنى عليه ولا نأخذ بجناياته التي يجنيها.

فعندما تخلع القبيلة أحد الأشخاص، تسحب الجنسية القبلية عنه حسب التعبير الحديث للكلمة، فلم تعد مسؤولة عنه ولا سائلة أيضا، ولذلك كان إعلان الخلع أمرا خطيرا بالنسبة للأفراد، فالخلع يخرج من حمى قبيلته ليجد نفسه في موقف ضيق ووضع شاذ لانه أصبح فردا منفصلا عن قبيلة في الوقت الذي هو بحاجة لحماية قبيلته والعيش مع الجماعة⁽¹⁴⁶⁾، فلا يرى أمامه إلا أحد طريقين، إما أن يلجأ إلى قبيلة أخرى يعيش في حماها جارا لها أو مولى من مواليتها. وإما أن يلجأ إلى الصحراء ليتخذ من الغزو والسلب، وقطع الطرق وسيلة للحياة، وأسباب الرزق معتمداً على قوته الشخصية في فرض نفسه، وإثبات وجوده في مجتمع قطع معه كل صلة فالبراض بن قيس بن رافع الكناني كان سكيراً خلعه قومه وتبرؤوا منه فشرب في بني الدليل فخلعوه، فأتى مكة، وأتى قريشا، فنزل على حرب بن أمية فحالفه وأحسن جواره، وشرب بمكة حتى هم حرب أن يخلعه، فقال لحرب: أنه لم يبق أحد ممن يعرفني إلا خلعني سواك وإنك إن خلعتني لن ينظر إلي أحد بعدك فدعني على حلفك وأنا خارج عنك وتركه وخرج فلحق بالنعمان بن المنذر بالحيرة⁽¹⁴⁷⁾. فإذا قتل

(144) يحيى (لطفى عبد الوهاب) العرب في العصور القديمة - دار النهضة العربية - بيروت ط2 1979 ص 369 يختصر إلى يحيى العرب في العصور القديمة.

(145) لسان العرب مادة خلع، تاج العروس مادة خلع.

(146) انساب الأشراف ج1 ص 100 - 101، الكامل في التاريخ ج1 ص 590، آلوسي ج3 ص 27 وما بعد شريف ص 34، سالم ص 435، خشروم الغربية ص 130، جاد المولى أيام العرب ص 326.

(147) الأغاني ج22 ص 56 - 57، الكامل في التاريخ ج1 ص 590، سبائك ص 448، جاد المولى أيام العرب ص 326، حوئي: الحياة العربية ص 285.

فرد ما شخصا آخر من قبيلة، ورفض ذووالمقتول قبول الدية تصبح بشخص زعيمها مضطرة لقتل القاتل أو خلعه حفاظاً على وحدة القبيلة، ومن أساء إلى قبيلته بأفعاله المشينة، وألحق بها العار، خلعت، مفضلة التضحية بفرد بدلا من جماعة⁽¹⁴⁸⁾.

وحدث أحيانا أن خلع المرء نفسه من قبيلته كي لا تتحمل جريرة أفعاله كما حدث لعمر بن العاص، وعمارة بن الوليد، فقد خلع كل منهما نفسه من عشيرته، وسبب ذلك أنهما ذهبا في تجارة إلى الحبشة فاختصما في الطريق وأساء عمارة إلى عمرو، وأضر له الشر، فكتب إلى أبيه أن يخلعه دفعا لما قد يجره عليه من المكروه إذا هوأذى عمارة، وكتب الآخر إلى أهله بمثل ما كتب الأول، فخلعت كل من العشيرتين صاحبها، وأرسلوا مناديا إلى مكة⁽¹⁴⁹⁾، لأن الخلع يتم في الأسواق والمحافل⁽¹⁵⁰⁾، بالمناداة والكتابة، بأن القبيلة قد خلعت فلانا فإن جر أي أخذ بجريرة لم تضمن، وأن جر عليه أي قتل لم تطلب⁽¹⁵¹⁾، فيغادر هذا الفرد المخلوع قبيلته ملتجئا إلى غيرها، طالبا الحماية والحلف والجوار فحين خلعت خزاعة قيس ابن الحداية أعلنت عن ذلك في سوق عكاظ، وأشهدت على نفسها بخلعها إياه، فلا تحتل جريرة له، ولا تطالب بجريرة أحد عليه⁽¹⁵²⁾.

وفي بعض الأحيان تنفي القبائل خلعاءها إلى أماكن معينة مثل حضوضى وهو جبل في الغرب وقيل جزيرة في البحر⁽¹⁵³⁾.

فالرجل الذي نفاه قومه، ولم يجد من يجيره، ينسحب إلى الطبيعة هربا من مواجهة القهر الذي يمارسه المجتمع والحياة على الفرد، ليجمع حوله عصابة ممن هم مثله من الشذاذ والفتاك، ليشهروا السلاح في وجه الأغنياء، وأصحاب الإبل بخاصة من الإغارة والغزو، لينتزعوا منهم مقومات حياة كريمة وإنسانية، يدل ذلك أن

(148) لسان العرب مادة خلع، بروص 260.

(149) أنساب الأشراف ج1 ص 232 - 233 - خشرم الغرية ص 123

(150) : أسواق ص 283، عوض الله: مكة ص 155

(151) لسان العرب مادة خلع، آلوسي ج3 ص 27

(152) الأغاني ج14 ص 145، أسواق ص 283، جمعة ص 150، علي: المفضل ج4 ص 412

(153) ياقوت مادة حضوض، تاج العروس مادة حضض، علي: المفضل ج4 ص 413.

هناك تمايزا اقتصاديا - اجتماعيا بين فئات المجتمع، وما نشوء هذه المجموعة من الناس التي يمكن أن نسميها الصعاليك إلا نتيجة مباشرة لهذا التمايز.

فالصعلكة في اللغة الفقر والصلعوك الفقير الذي لا مال عنده ولا اعتماد له على شيء أو أحد يعينه على شق طريقه في الحياة⁽¹⁵⁴⁾.

ينعكس ذلك في أخبارهم، وفي شعر شعرائهم حيث نجد إحساسا مريرا بواقع الفقر في نفوسهم، وشكوى صارخة من الظلم الاجتماعي، وهوان منزلتهم واستنكار للعبودية، والتمييز العنصري، فقيس بن الحداية السابق الذكر يرى أنه لا يساوي عند قومه عنزا جرياء جد ماء⁽¹⁵⁵⁾، وخبر تلك اللطمة التي لطمتها الفتاة السلامية للشنفرى والتي كانت سببا في تصعلكه، لأنها أنكرت عليه أن يرتفع إلى مقامها الاجتماعي على الرغم من أن بني سلامان كانت تعتبره واحدا منها حيث نشأ فيها فلم ترفع الحواجز التي تفصل بينهما، ففي ذلك خبر كبير الدلالة على ما كان يعانيه الصعاليك في مجتمعهم من ضيم ومذلة⁽¹⁵⁶⁾، فلا عجب بعد ذلك أن نرى قيس بن الحداية يجمع الكثير من أمثاله ويغير بهم على قومه ويستاق أموالهم⁽¹⁵⁷⁾ ولا عجب من إغارة الشنفرى على من نشأ فيهم وقتله تسع وتسعين رجلاً منهم⁽¹⁵⁸⁾. لقد بتر هؤلاء الصعاليك العلاقة القائمة بينهم وبين منظوماتهم الجماعية. القبلية، وانسحبوا إلى الطبيعة هربا من مواجهة القهر الذي مارسه المجتمع عليهم، فلم يستكينوا للحياة القاسية، بل كانوا يتحدثونها من أجل إعادة مجتمع المساواة والملكية العامة لوسائل الإنتاج والمعيشة وعلاقات الإخاء الخاصة لوسائل الإنتاج والمعيشة وعلاقة الاستغلال بين المستثمرين والمستثمرين.

وضار هؤلاء قوة خشى منها، وحسب لها ألف حساب وأن فيهم شعراء فحولوا أحسنوا الهجاء وأتقنوا فن ثلب الأعراض وفيهم مقاتلون شجعان لا يعبأون بالموت،

(154) لسان العرب مادة صعلك.

(155) الأغاني ج 14 ص 160 والجدماء المقطوعة اليد لسان العرب مادة جدم

(156) الأغاني ج 21 ص 179

(157) الأغاني ج 14 ص 145، جمعة ص 150

(158) الأغاني ج 21 ص 179.

ويفتكون بمن يريدون الفتك به ، فخافهم الناس وامتنعوا جهد إمكانهم عن التحرش بهم ومعاداتهم.

ومقابل ذلك وجدنا أن بعضهم قبل جوار الصعاليك ورد عنهم وأحسن إليهم فاستفادوا منه واستفاد منهم⁽¹⁵⁹⁾.

كان عروة بن الورد زعيمهم ونصيرهم ، وحامل لوائهم ، ذكره عبد الملك بن مروان قائلاً : ما كنت أحب أن أحد ولدني من العرب إلا عروة بن الورد⁽¹⁶⁰⁾ ، فعروة صعلوك فلف الصعلكة بأن جعلها مثلاً من مثل الحياة ، بينما كانت تعني فقراً مدقعاً ، وجوعاً قاتلاً وهياماً على وجه الأرض.

9- الأحلاف:

وجدنا فيما سبق أنه اندمج أثناء التطور الاجتماعي للقبيلة بعض عناصر غريبة عنها ، إما بالجوار ، وإما بالتبني والولاء ، فكان الجار أو المولى يسمى أيضاً بالحليف ، وذلك لأن عهد الجوار كان يتم بالقسم وحلف اليمين ، فكان الرجل يحلف لصاحبه أن لا يغدر به ، ويبدو أن فكرة القسم جاءت متأخرة. وأن الأصل في الحلف هو اتحاد جماعات منفصلة في جماعة أخرى أعز جانباً بحيث يندمج الجار في العشيرة ويصبح أخاً لكل فرد فيها وله جميع الحقوق والواجبات⁽¹⁶¹⁾ ، وقد بلغ من اندماج الحليف في عشيرة مجيرة ، أنه كان يرثه حتى في ماله⁽¹⁶²⁾

فللأحلاف أهمية كبيرة في عرف العرب في عصر ما قبل الإسلام ، لانهم عاشوا في ذاك الوقت على شكل قبائل ، وكانت القبائل على درجات من القوة من حيث عدد الفرسان فيها ، واستقلالها في نفسها وعدم دخولها في أحلاف قبلية ، فلا بد للقبائل الضعيفة من أن تتحالف مع غيرها أقوى منها لتحافظ على نفسها ، لذلك بلغت

⁽¹⁵⁹⁾ علي المنفلوطي ج 4 ص 413.

⁽¹⁶⁰⁾ ابن السكيت (يعقوب بن إسحاق) ديوان عروة بن الورد. تحقيق عبد المعين الملوحي، وزارة الثقافة

والإرشاد، القومي ص 2، يختصر إلى ديوان عروة بن الورد.

⁽¹⁶¹⁾ جمعة ص 151

⁽¹⁶²⁾ جمعة ص 152.

اتحادات القبائل العربية مرحلة من التطور في العلاقات الاجتماعية، واتخذت صورة تنظيمات شتى، وتمتعت بالقوة والنفوذ العناصر القبلية، والروابط العشائرية والفردية.

ولم يكن عقد الحلف قاصرا على الأفراد، بل شمل الجماعات أيضا فتحالفت على أساس من المصالح المشتركة، والضرورات الدفاعية، فالعرب كانوا ينتسبون إلى الأعز لحماية الحماية وابعاء الدنية، وسكون النفوس إلى نفيس الكثرة والعصبية⁽¹⁶³⁾، فعمرت بعض الأحلاف طويلا وانتهت إلى نسب، شعر معه أفراد القبيلة أنهم متسلسلون من أسرة واحدة، ومن جد واحد⁽¹⁶⁴⁾، وكان يجوز للأفراد الذين ينضمون بحلف ما إلى قبيلة أن ينسبوا إلى القبيلة التي دخلوا فيها، وأن ينسبوا إلى القبيلتين معا⁽¹⁶⁵⁾.

وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة، أو ما يدعو إلى انفصال بعض قبائل الحلف بسبب خلاف ناشئ أو تناقض قائم، فتتضم القبائل المنفصلة إلى حلف آخر - يحقق لها مصالحها، ومن ثم كنا نرى أحلافا تتكون وأحلافا قديمة تتفكك أو تضعف وفي ذلك قول البكري: ((فلما رأَت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة، وتنافس الناس في الماء والكلأ، والتماسهم المعاش في المتسع، وغلبة بعضهم بعضا على البلاد والمعاش، واستضعاف القوي للضعيف، انضم الذليل إلى العزيز، وحالف القليل منهم الكثير، وتباين القوم في ديارهم ومالهم، وانتشر كل قوم فيما يليهم⁽¹⁶⁶⁾

فالغرض من دخول جماعة في حلف جماعة أخرى التعاقد على الموت وأن يكون لهم ما لأفراد الجماعة الرئيسة من حقوق وواجبات، لهذا كان لا بد من إيجاد وسيلة لوصل الأحلاف بعلاقة الدم، ولما كان الدم الذي يجري في عروق جماعة منهم يختلف عن الدم الذي يجري في عروق الجماعة الأخرى لعدم وجود نسب بينهما،

(163) نهاية الأرب ج 2 ص 283، جمعة ص 154

(164) أمين (أحمد) فجر الاسلام، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة التاسعة 1964 م ص 4 - يختصر إلى

أحمد أمين فجر الاسلام،

(165) هلال الجمان ص 221، سبائك ص 18

(166) البكري معجم ما استعجم ج 1 ص 53.

كان لا بد من إيجاد دم صناعي لعقد الحلف، وكان هذا الدم في الأصل دم الذبائح التي تتحرر للإلهة⁽¹⁶⁷⁾، وكان لعق الدم الوسيلة التي تعقد بها أخوة صناعية بين الجماعات المتحالفة كما أسلفنا القوم، والطريقة في ذلك أن يغمس كل فريق يده في جفنة مألئ بالدم، ثم يلعق كل رجل ما علق بيده: وكانوا يطلقون على أمثال هؤلاء لعقة الدم⁽¹⁶⁸⁾، ومنهم بنوعامر بن عبد مناة بن كنانة، فهم من أشد أحياء بني كنانة⁽¹⁶⁹⁾. وبمرور الزمن شرع بعض العرب يقلعون عن استعمال الدم في عقد الحلف، ويستعيضون عنه بأنواع أخرى من السوائل مثل الرب فقد كان يشبه الدم في حمرة، ومن ذلك حلف الرباب⁽¹⁷⁰⁾.

واستعملوا الماء في العقد في نوع آخر من الحلف، وهو حلف الفضول الذي كان الغرض منه إنصاف المظلوم، وإغاثة الملهوف، وحماية الضعيف ونصرة الحق في ذاته، وابتغاء كرامة الإنسان نفسه دون مقابل أو عوض، أو مساومة وقد ذكرت الكتب قصة هذا الحلف ملخصها أن رجلاً من زييد جاء بتجارة له إلى مكة، فاشتراها منه العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم، ولم يعطه ثمنها، فشكى مظلّمته فأعظمت قريش ذلك، وتداعى إلى الحلف بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، واجتمعوا في دار الندوة، وساروا إلى دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا فيما بينهم أن لا يظلم بمكة أحد إلا كنا جميعاً مع المظلوم على الظالم حتى نأخذ له مظلّمته ممن ظلمه شريف،

(167) جمعة ص 154

(168) الأغاني ج 7 ص 282، علي: المفصل ج 4 ص 378 وما بعد، جمعة ص 160

(169) الأغاني ج 7 ص 282، علي: المفصل ج 4 ص 379، جمعة ص 160

(170) العقد الفريد ج 3 ص 297، جواد: المفصل ج 4 ص 378، جمعة ص 162، دلوج ج 2 ص 428

أو وضع منا أو من غيرنا⁽¹⁷¹⁾، وقد ورد في نهاية القصة، ثم عمدوا إلى ماء زمزم، فجعلوه في جفنة ثم بعثوا به إلى البيت، ففسلت به أركانه ثم أتوا به فشريوه⁽¹⁷²⁾.
من دراسة هذا الحلف، يتوضح لنا أن المكانة الاجتماعية للفرد تتعلق بالشراء، فعبد الله ابن جدعان كان يومذاك واسع الثراء يأكل بصحاف من ذهب⁽¹⁷³⁾.
ومن ثم يصور لنا هذا الحلف الجوالاجتماعي العربي الذي يتصف بالمروءة وإقامة العدل، وإكرام الضيف، والتكتل الاجتماعي، ويصور لنا تفسخ معنى العصبية القبلية القديمة - انصر أخاك ظالما كان أو مظلوما - ونشوء عصبية من نوع جديد فالمصالح الاقتصادية لها الاعتبار الأول في ذلك، وإلا ضربت مصالح قريش التجارية، وبالأحرى مصالح المجتمع المكي، لان رأسمال التاجر، الصدق والأمانة والعدل، فان ذهب ذلك، ذهب كل شيء لديه، وأكثر من ذلك أن مكة مركز مقدس لا يجوز أن يظلم به أحد، وماء زمزم مقدس، ولذلك استعمل في هذا الحلف لعداسته. ويذكر الاخباريون أن الرسول صلى الله عليه وسلم شهد هذا الحلف⁽¹⁷⁴⁾ قبل المبعث بعشرين سنة بعد حرب الفجار بأربعة أشهر⁽¹⁷⁵⁾، وكان يقول: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم"⁽¹⁷⁶⁾ ولو أدعى به في الاسلام لأحببت⁽¹⁷⁷⁾.

(171) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 140 - 141، السهيلي: الروض الأنف ج 1 ص 156، المنقح ص 52 - 53
اليعتوبي: تاريخ ج 2 ص 17، الأغاني ج 17 ص 287 - 290، البداية والنهاية ج 2 ص 291 - 293، شفاء
الغرام ج 2 ص 99، العقد الثمين ج 1 ص 151، أسواق ص 183
(172) الأغاني ج 17 ص 289 - 290، دلو ج 2 ص 430
(173) الميداني: مجمع الأمثال ج 1 ص 127، جواد: المفصل ج 7 ص 438
(174) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 141 - 142، السهيلي: الروض الأنف ج 1 ص 155، المنقح ص 53، الأغاني
ج 17 ص 289 - 290، شفاء الغرام ج 2 ص 102، أسواق ص 184،
(175) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 140 حاشية، الأغاني ج 17 ص 289، البداية والنهاية ج 2 ص 291، شفاء
الغرام ج 2 ص 103
(176) أي لا أحب نقضه ولو دفع لي حمر النعم في مقابلة ذلك، ابن هشام ج 1 ص 142 حاشية.
(177) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 141 - 142

وكانوا يغمسون أيديهم في الطيب بدلا من الدم والماء أو عصارة الثمار وثم يمسحون به الكعبة فعندما اختلف بنوعبد مناف مع بني عبد الدار في توزيع المرافق الاقتصادية - الندوة والحجابة والسقاية، والرفادة واللواء كما مر معنا في مكة بين جميع القبائل - عقد بنوعبد مناف وحلفاءهم حلفا أسموه حلف المطيبين⁽¹⁷⁸⁾، لان أبناء عبد مناف اخرجوا جفنة مملوءة طيبا ووضعوها لأحلافهم وهم أسد وزهرة وتيم عند الكعبة فغمسوا أيديهم فيها، متعاقدين على إلا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا⁽¹⁷⁹⁾. وربما أوقدوا نارا عند تحالفهم، ودعوا بالمنع والحرمان من خيرها ومنافعها على من ينقض العهد، وكانوا يقولون الدم الدم، والهدم الهدم لا يزيده طلوع الشمس إلا شدا، وطول الليالي إلا مدا، مابل بحرصوفة 0000000⁽¹⁸⁰⁾ سماوا هذه النار بنار المهول⁽¹⁸¹⁾ قال اوس بن حجر:

إذا استقبلته الشمس صابوجهه كما صعد عن نار المهول حالف

وكانوا يطرحون الملح والكبريت⁽¹⁸²⁾ في النار، فإذا استشأطت قالوا للحالف هذه النار تهددتك، يخوفونه بها حتى يحافظ على العهد والوعد ولا يحلف كذبا، واستعمال النار في الحلف يدل على أثر الفرس في العرب لانهم كانوا يعظمون النار⁽¹⁸³⁾، وتجدر الإشارة إلى حلف الأحابيش الذي عقد بين الأحابيش وقريش على الركن⁽¹⁸⁴⁾.

وفي يثرب - المدينة تألفت أحلاف بين قبائلها، وعقد حلف بين أوس المدينة وقريش مكة، وكان أبوجهل غائبا، فلما قدم أنكر التحالف، وسار إلى يثرب،

(178) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 138 - 139، ابن خلدون: العبر ج 2 ص 336

(179) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 139

(180) الجاحظ: الحيوان ج 4 ص 470، الميداني: مجمع الأمثال ج 1 ص 265

(181) الجاحظ: الحيوان ج 4 ص 470 - 417 صبح الأعشى ج 1 ص 409 نهاية الأرب ج 1 ص 111

(182) نهاية الأرب ج 1 ص 111، نشوة الطرب ج 2 ص 799، علي: المفصل ج 4 ص 380 حسن: حضارة

ص 103،

(183) الجوهري: الحياة العربية ص 288

(184) انظر الفقرة المتعلقة بالكلام عن قريش من هذا الفصل

واشترط على الاوس شروطاً لم يقبلوها فنقض الحلف⁽¹⁸⁵⁾ وعقدت ثقيف مع بني يربوع حلفاً دام فترة من الزمن، وسعت قبائل الطائف أن تعقد محالفات مع قبائل من خارج بلدهم، فسارت بنو مالك تبتغي الحلف مع دوس وخنعم على الأحلاف، وخرجت الأحلاف إلى يشرب تبتغي الحلف من الأنصار لمواجهة بني مالك⁽¹⁸⁶⁾.

ولشدة حرص العرب على الأحلاف واهتمامهم بها، كانوا يدونونها لتوكيدها وتثبيتها، وكانوا يودعونها في أماكن عبادتهم بعد إشهاد الشهود عليها تعظيماً للأمر وتبعيداً عن النسيان⁽¹⁸⁷⁾، وتطلب الأمر الوفاء بالعهد قال تعالى: ((وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ))⁽¹⁸⁸⁾

تبين لنا مما تقدم أن العشيرة أسبق على القبيلة، وقد كانت عشيرة إقليمية، وأنه احتفظ العرب منذ أقدم العصور بنظام العشيرة وما القبيلة في الحقيقة إلا مجموعة من العشائر، أو ما في حكمها كالعمائر والافخاذ والبطون، وكلها بمعنى واحد، والفرق بينها أنها تختلف في الحجم، وفي درجة بعدها عن الجد الأعلى. وقد أوجدت الظروف القاسية في عيشة الصحراء هذا النظام الاجتماعي، ولما زاد عدد العشيرة، ونمت بحيث لم تعد تستطيع أن تجد ما يقيم أودها، اضطرت بحكم الضرورة الاقتصادية أن تنقسم إلى جماعتين أو أكثر، وعلى مر الزمن أصبحت كل جماعة مستقلة لها ظروفها الخاصة، ومصالحها الخاصة وقد تتعارض هذه المصالح مع مصالح إخوانهم الأصليين، أو قد يثور نزاع فيؤدي إلى حرب بين الفريقين، كما حدث بين الاوس والخزرج مع انهما كانا في الأصل يكونان جماعة إقليمية واحدة، واستعملت كلمة قبيلة بالمعنى العام الاصطلاحي وهي اسم خاص لأحد أقسام المجتمع في العصر الجاهلي غلب على الأقسام الأخرى، ورأينا أن علاقة الدم التي تربط قديماً بين أفراد فريقين من ذوي القربى مثل الاوس والخزرج قبل انفصال أحد الفريقين عن الآخر، قد أهملت بمرور الزمن، وأصبح واجب الفرد مقصوراً على

(185) الكامل في التاريخ ج 1 ص 677 - 678

(186) الكامل في التاريخ ج 1 ص 684 - 686

(187) الجاحظ: الحيوان ج 1 ص 69 - 70 - جواد: المفصل ج 4 ص 376، حسن: حضارة ص 103

(188) سورة النحل: الآية 91.

جماعته الإقليمية الجديدة التي تكونت بعد ذلك، مما يدل على تفسخ مفهوم العصبية القبلية آنذاك، وقيام عصبية من نوع جديد، ومن ثم فإن محور القرابة عندهم الذي كان قائما على صلات الدم صار قائما على الادعاء، فكان الولد نفسه لا يلحق بأبيه إلا إذا رضي أن يلتحق به، ولم يكن رضاه هذا ملزما به إلى الأبد، بل يحق له أن يخرج من يشاء من أفراد أسرته ممن سبق له الاعتراف بهم فيصبح هذا غريبا عن القبيلة لأن نظام القبيلة سار آنذاك على مجرد اصطلاحات اجتماعية، لا وفقا لما تمليه الغرائز أو توحى به الميول الفطرية، أو تحدده صلات الدم، ولذلك كانت القبيلة عبارة عن فئات اجتماعية لأن مفهوم الطبقية لم يعرفه العرب مثلما ساد في الهند أو لدى الفرس وكانت القبائل على درجات من القوة والعدد، فاضطرت القبائل الضعيفة أن تستنصر بعضها بعضا ضد القوية، وتتحالف حرصا على سلامة كيانهما وهذا التحالف هو الطور الأخير من أطوار نظام القبائل وتوجه العرب نحو الوحدة.